جدلية الحياة والموت في القصص الحيواني في الشعر العربي القديم
– الأبعاد الدلالية وأشكال الحضور في صورة الثور الوحشي–

The dialectic of life and death in animal stories in ancient Arabic poetry
– The semantic dimensions and the forms of presence in the image of the wild bull-

سامية قاع الكاف [1]

جامعة الجزائر2

Samia.kaaelkef@univ-alger2.dz

تاريخ الوصول 2023/04/19 القبول 2023/08/05 النشر على الخط 2024/01/15
Received 19/04/2023 Accepted 05/08/2023 Published online 15/01/2024

ملخص:

تعالج هذه الورقة البحثية إشكالية الصراع الذي يجسدُّ موقف الشاعر العربي القديم من القضية الوجودية التي لطالما أرقته؛ المبثوث في القصيدة العربية القديمة . لتأتي بعد ذلك محاولة قراءة ما يكشف عنه هذا المضمون المتمثل في القصص الحيواني من جدلية الصراع بين الحياة والموت خلال العصر الجاهلي.

حيث شكلَّ الحديث عن حيوان الصحراء حضورا واسعاً في الشعر الجاهلي، فقد وظفه الشاعر كمشبه به للناقة، وصاغ منه قصصا شعريا ليس بهدف السرد القصصي، أو تحقيق المتعة الفنية، أو الكشف عن درايته بعالم الصحراء والحيوان فحسب، بل اتضح أنَّها قصص رمزية استعان بها الشاعر لبث المزيد من فلسفته المتصلة بالقضية الوجودية، وموقفه من الفناء والدهر، وصراع الإنسان وكفاحه في الحياة.

الكلمات المفتاحية: جدلية، الحياة/الموت، القصص الحيواني، الأبعاد الدلالية، أشكال الحضور.

Abstract:

This research paper deals with the problem of conflict, which embodies the position of the ancient Arab poet on the existential issue that has always haunted him, which is broadcast in the ancient Arabic poem. Then comes an attempt to read what this content of animal stories reveals about the dialectic of the struggle between life and death during the pre-Islamic era.

Talking about the desert animal has formed a wide presence in pre-Islamic poetry, the poet has employed it as a likeness of the camel, and formulated poetic stories not only with the aim of storytelling, or achieving artistic pleasure, or revealing his knowledge of the world of the desert and animals, but it turned out that they are symbolic stories used by the poet to broadcast more of his philosophy related to the existential issue, and his position on annihilation and age, and the struggle of man and his struggle in life.

Keywords:. *Dialectics, life/death, animal stories, semantic dimensions, forms of presence.*

[1] المؤلّف المراسل: سامية قاع الكاف البريد الإلكتروني: **samia.kaaelkef@univ-alger2.dz**

مقدمة:

شغف الشاعر الجاهلي بناقته شغفًا جعله يسخر لها كل طاقاته الإبداعية، ويوفر لها من الصفات والحسنات ما جعلها يرتفع بها إلى مرتبة الإنسان، لقد كانت امتدادا لشخصيته، بل رأى فيها ذاته المعذبة المسكونة بهاجس الموت، فشيَّد لها تمثالا ضخما وزرع فيه روحا متعالية مشبعة بإرادة القوة وحس الانتصار لتكون في مستوى التحدي والمقاومة وتجاوز عقبات الحياة ونكبات الدهر. لقد كانت الناقة بذلك أداة فنية وظفها الشاعر الجاهلي لبث أفكاره ومشاعره ورؤاه والتعبير عن مواقفه في الوجود.

1- صور حيوان الصحراء في الشعر الجاهلي:

حينما أحس الشاعر الجاهلي أن مقطع الناقة قد ضاق – إن صح التعبير – بذلك الفيض من الرؤى والمواقف، وأنَّه في حاجة إلى خلق حيز شعري آخر يستوعب إلى حيوان آخر يمثل في الحقيقة الصورة البديل للناقة، لأنه يوظف في الغالب على أنَّه مشبه به لها. ومن هنا قد لا تنسجم تسمية الاستطراد مع هذه التقنية لما يفيده المصطلح من معنى التحول والانتقال من موضوع إلى آخر يكون فيه بعض الاختلاف أو كلّه.

فواقع الأمر أن الشاعر هنا لا يستطرد وإنما يستمر في الموضوع ذاته ومع الناقة نفسها في صورة جديدة تستجيب لطبيعة المشاعر والرؤى التي يسعى الشاعر إلى توصيلها والتعبير عنها من هنا انفتح المجال واسعا أمام الشاعر الجاهلي فالتقى بحيوان الصحراء وعالمه الثري بالمشاهد والصور والأحداث، فصاغ منه ذلك القصص الشعري الذي عَبَّر من خلاله عن فلسفته الوجودية، عن موقفه من الفناء والدهر، عن صراع الإنسان وكفاحه في الحياة، واختار لكل حيوان قصة تنسجم أكثر مع طبيعة الفكرة والموقف.

فكان **الثور الوحشي** نموذجا للقوة والمواجهة والصراع من خلال تلك المعركة الشرسة التي يشنها ضد كلاب ضارية مدربة، ليس بغرض التصوير" بل لما يرون في هذه اللوحة من الثراء الدلالي والعمق الرمزي القادر على استيعاب مواقفهم ورؤاهم، فتأتي سلوكات الثور وهواجسه تعبيرا حيا متحركا عن الشاعر نفسه "[1] .

وكانت **البقرة المسبوعة** مثال الأمومة الحانية، ومثالا للفجيعة التي تحلُّ بالإنسان حين يصيبه الدهر في أعز ما يملك ويسلب منه النسل، هذا بالإضافة إلى تجسيدها لمبدأ الصراع انطلاقا من تلك المواجهة العنيفة التي تخوضها ضد الكلاب.

أما **الحمار الوحشي** فقصته على ما فيها من صراع هادئ – إن صح التعبير –، فهي تجسد أكثر تقلبات الدهر، ومبدأ التحول القائم في الحياة، من الخصوبة إلى اليبوسة، ومن السعادة إلى التعاسة، من الحياة إلى الموت، ومن نجاة إلى مكمن آخر للهلاك. كما أنَّهَا قصة مشبعة بالحنان والحب والتوافق العاطفي، الذي يصبو إليه الشاعر الجاهلي، فأعرب عن حاجته إليه من خلال ما عرضه من مواقف وأحداث.

كما كانت قصة **الظليم والنعامة** من أبرز النماذج التي تُعبِّر أكثر عن أجواء الحياة السعيدة إلا ما يتخللها من حين إلى حين من بعض المنغصات القليلة. وهو أحد المشاهد التي استوحاها الشاعر من حياته في البيئة الصحراوية العربية، لتصبح هذه الصورة " هيكل فني آخر ولبنة من لبنات القصيدة العربية قبل الإسلام"[2]

---

[1] سعيد العريفي، نسيج القصيدة الجاهلية، مؤسسة الانتشار العربي- بيروت، لبنان ،ط1، 2011م، (ص135).

[2] حاكم حبيب عزر الكريطي، السرد القصصي في الشعر الجاهلي، تموزة للنشر والتوزيع، 2008م، (ص72).

وكما حمل الشاعر همومه ومشاعره وانفعالاته وتفاصيل دقيقة عن حياته في مشاهد مختلفة وصف فيها حيوانات الصحراء، فإنَّ تصوير الظليم والنعامة كان منوطا به هذا الدور أيضا . حيث أبدع الشاعر الجاهلي صورا جمالية بالغة الروعة في حديثه عنها.

هذه القصص المذكورة، أو بالأحرى هذه الحيوانات هي تلك التي شكلَّت الصورة البديلة للناقة، وأعطت للشاعر نفسا جديدا للتعبير عما يبطنه فكره وضميره من أفكار وقضايا وهموم، فهي ليست كما يزعم البعض مجرد مشبه به لهذه الناقة، فما كان الشاعر الجاهلي ليكلف نفسه كل هذا العناء لا لشيء إلا لتوضيح صورة المشبه. وهذا ما أكده وهب رومية في قوله: "فليس الغرض من هذا التشبيه الذي امتد وطال واتسع حتى غدا حكاية كاملة مستقلة بذاتها توضيح المشبه، ولكنه غرض في حد ذاته يقصد إليه الشعراء قصدا."[1] فما حقيقة هذا المشبه به إذن، وما قصد الشعراء من ورائه؟

أما الإجابة عن هذا السؤال، فلاشك يقودنا أولا إلى التعرف على مضمون هذه القصص، وسأقصر الحديث عن قصة الثور الوحشي، لتأتي بعد ذلك محاولة قراءة ما يكشف عنه هذا المضمون من جدلية بين الحياة والفناء خلال العصر الجاهلي.

2. صورة الثور الوحشي:

جرى التقليد أن تجيء صورة حيوان الصحراء عقب الحديث عن الناقة، بحيث يثير ذكرها حديث الموجودات الأخرى التي يعني الشعراء بأوصافها. فلا يكاد يذكر الناقة حتى يأخذ بتشبيهها بالبقرة الوحشية أو الحمار وأتانه أو الظليم، ثم يذهب إلى سرد قصة ذلك الحيوان وما كان من أمره مع الصياد وكلابه، حتى إذا ألم بأحداثها، عاد إلى ناقته من جديد. وفي إطار هذا السرد القصصي والمشابهة الموضعية تكشف القصيدة الجاهلية في قصة الثور الوحشي عن أبعاد جديدة تتصل بقصة الانسان الخالدة في دورة الحياة والموت، واختلاف الفصول، حيث أشارت إلى فكرة القدر، وعلاقة الصراع القائمة بينه وبين الأحياء.

لقد كان الشاعر الجاهلي كثير الإصغاء إلى صوت ضميره، وبذلك صور معتقداته وتصوراته الغيبية والأسطورية، كما كشف عن تصوره لأخطر إشكالية عرضت له، إنها مشكلة البقاء والفناء أو الحياة والموت التي عبر في صورة قصص رمزية، كان من أبرزها قصة الثور الوحشي التي تعكس بصورة واضحة الصراع الدائم من أجل البقاء.

تبدأ قصة الثور الوحشي في المساء حين يلجأ إلى شجرة الأرطى الضخمة ليتقي بها الريح والمطر، وليختفي عن الأنظار، إذ يحفر في أعماقها حفرة يبيت فيها، لكن الرمال تنهال عليه وتفقده توازنه، ويطل يغالبها وتغالبه حتى الصباح، أضف إلى ذلك الرياح الباردة التي تلطم وجهه بحبات البرد، فيميل لها قرنيه، والمطر الذي يتصبب على ظهره، والأصوات المخيفة التي تنبعث في ليل الصحراء، ويظل الثور طوال الليل قلقا متعبا مهموما. ثم يقدم لنا الشاعر بعض صفات الثور الجسدية، فهو أبيض اللون كالثوب اليماني[2] أو كالكوكب المضيء[3]، أسفع الوجه كأن به ديباجا[4]، موشى القوائم[1]، ظهره مخطط[2]، وأنفه الأفطس[3] ... وغيرها من الصفات التي

---

[1] رومية وهب أحمد، الرحلة في القصيدة الجاهلية، مؤسسة الرسالة- بيروت ،ط3، 1402هـ-1982م، (ص 79).

[2] المرقشان، ديوان المرقشين: المرقش الأكبر عمرو بن سعد، تح : كارين صادر، دار صادر للطباعة والنشر- بيروت، لبنان ،ط1، 1998م، (ص 74).

[3] الأعشى، الديوان، شرح: يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ط1 ،1992م، (ص 21). بشر بن أبي خازم ، الديوان، تحقيق : عزة حسن ، دار صادر-بيروت، ط2، (ص55).

[4] لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، دار صادر- بيروت، (ص 208).

الأعشى ، الديوان، (ص 278).

تكرر في معظم القصائد. وهو القسم الأول من القصة. أما القسم الثاني، فيبدأ عند شروق الشمس حيث يباغت الثور الصياد وكلابه ليغادر الثور مكانه ويعتلي كثيبا من الرمال، وهناك تجور معركة ضارية بين الكلاب والثور، وتنتهي بانتصاره ومصرع الكلاب ثم ينطلق في عرض الصحراء مزهوا بانتصاره.

سنقف عند جوانب عديدة من الصور التي رسمها الشعراء لهذا الثور الوحشي. فقد شبه لبيد وناقته بثور أخنس ناشط، جادت عليه ليلة لم ينقطع فيها هطول المطر، وكان وحيدا ضالا، فلجأ إلى ديمة هطلاء تعصف بها ريح الشمال الباردة بجانب شجر الفرقد ونبات السدر البري الذي التجأ إليه. وترى هذا الثور يدير قرنيه بارتعاش إلى السماء منقبضا كلما سقطت على ظهره قطرة ماء من الغصون، ثم يخفض ظهره وقد مال إلى جنبه. ويكرر هذه الحركة كأنها صقل للسيوف. يقول:

كـأخنسَ ناشـطٍ جـادتْ عَلَيـه ... بِبُرْقَـةٍ وَاحِـفٍ إِحْـدَى اللَّيـالِي

أَضـلَّ صِـوَارَهُ وتَضَيَّفَتْـهُ ... نَطُـوفٌ أَمْرُهَـا بِيَـد الشِّـمَالِ[4]

فبـاتَ كَـأَنَّهُ قـاضِي نُـذُورٍ ... يَلُـوذُ بِغَرْقَـدٍ خَضِـلٍ وَضَـالِ[5]

إِذا وَكَـفَ العُصُـون علـى قَـرَاهُ ... أَدَارَ الـرَّوْقَ حَـالاً بَعْـدَ حَـال

جُنُـوحَ الهالكـيِّ علـى يَدَيْـهِ ... مُكِبًّـا يَجْتَلِـي نُقَـبَ[6] النِّصَـالِ[7]

أما الأعشى فقد اختار البدء في الحديث عن ناقته متوهما أنه يعتلي ظهر ثور جائع أسود الخد مع شيء من الحمرة، عريض الأنف غليظه، أبيض الظهر، أسود البطن، كأنه لبس ثوبا ناصع البياض من تحت جلد قاتم، صبغه إسكافي ماهر بالأسود القاتم.

بات الثور هذا ليلته ظمآن طاويا، يطيل النظر إلى السماء، لقد لاذ بشجرة الأرطى في منعرج من الرمال تعصف من حوله ريح شمالية تترك وجهه مغبرا قاتما. وأكب الثور على أصل الشجرة بقرنيه يحفر فيها مكانا يأويه ويوفر له الدفء والحماية، لكت تتهاوى عليه الرمال الهشة فلا تمكنه من الاستناد والاطمئنان إليها لعدم تماسكها. يقول الأعشى:[8]

كَـأَنِّي وَرَحْلِـي والقِنَـانَ وَنُمْرُقِـي ... علـى ظَهْـرِ طَـاوٍ أَسْـفَعِ الخَـدِّ أَخْثَمَـا[9]

---

[1] النابغة الذبياني ،الديوان، تحقيق وشرح : كرم البستاني، دار صادر– بيروت، (ص 31).

بشر بن أبي خازم ، الديوان، (ص 51، ص 55).

[2] المثقب العبدي ، الديوان، تحقيق وشرح وتعليق : حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات العربية، 1971م،(ص 101).

[3] الأعشى ، الديوان، (ص 278).

[4] الصوار: قطيع البقر الوحشي – نطوف: سحابة ماطرة

[5] الغرقد: نوع من الشجر

[6] الهالكي: الحداد – النقب: الصدأ

[7] لبيد بن ربيعة العامري ، الديوان، (ص 105).

[8] الأعشى ، الديوان، (ص 278 – 279).

[9] القنان: غشاء من جلد – النمرق: الوسادة الصغيرة – طاو: الثور الوحشي الضامر من شدة الجوع – أخثم: عريض الأنف غليظه.

عليـــه دَيَـــابُوذُ تسرْبَـــلَ تَحْتـــه أَرَنْـــدَجَ إِسْكَـــافٍ يُخَـــالِطُ عِظْلَمَـــا[1]
فَبَـــاتَ عَـــذُوبًا للسَّـــمَاءِ كَأَنَّمَـــا يُـــوَائِمُ رَهْطًـــا لِلْعزُوبَـــةِ صُيِّـــما[2]
يَلُـــوذُ إِلَى أَرْطـــاةِ حِقْـــفٍ تَلُفُّـــه خَرِيـــقُ شَمَـــالٍ تَتْـــرُكُ الوَجْـــهَ أَقْتَمَـــا[3]
مُكِبًّـــا عَلَـــى رَوقَيْـــهِ يَحْفُـــر عِرْقَهَـــا علـــى ظَهْـــرْ عُرْيَـــانِ الطَّرِيقَـــةِ أَهْيَمَـــا[4]

وقد أحس امرؤ القيس أيضا أنّه يعتلي ظهر ثور – عرنان – متوجس من سماع الأصوات من حوله. فبعد العشاء قام الثور يحفر بأظلافه، وأخذ يميل تراب الحفرة، يهيله ويذريه لعله يصل إلى الدفء وشبهه بمن لم يرو لعدة أيام (خمس) من أيام الصيف، فأخذ ينبش التراب سعيا للوصول إلى شيء من الماء يطفئ به نار ظمئه. وبات الثور كأسير موثق، مطروح على جنبه وقد التصق خذه الأسود ومنكبه بالتراب وبتهاطل الأمطار انتشرت رائحة بعر الثور كرائحة المسك من بيت عريس ليلة زواجه. يقول[5]:

كَـــأَنِّي وَرَحْلِـــي فَـــوْقَ أَحْقَـــبٍ قَـــارِحٍ بِشَـــرْبَةِ أَوْطَـــارٍ بِعَرْنَـــانِ مُوجِـــسِ[6]
تَعَشَّـــى قَلِـــيلاً ثُمَ انْحَـــنَى ظُلُوفَـــهُ يُثِـــيرُ التُّـــرَابَ عَـــنْ مَبِيـــتٍ وَمَكْـــنَسِ[7]
يُهِيـــلُ وَيَـــذْرِي تُرْبَهَـــا وَيُثِيـــرُهُ إِثَـــارَةَ نَبَـــاتَ الهَوَاجِـــرِ مُخَمَّـــسِ[8]
فَبَـــاتَ عَلَـــى خَـــدٍّ أَحَـــمٍّ وَمَنْكَـــبٍ وضَـــجَعْتهُ مِثْـــلَ الأَسِـــيرِ المكَـــرْدَسِ[9]
وَبَـــاتَ إِلَى أَرْطَـــاةِ حِقْـــفٍ كَأَنَّهَـــا إِذَا أَلْثقتهـــا غَبيـــةُ بَيْـــتَ معـــرَّسِ[10]

وقد آثر النابغة أن يُصوِّرَ بوضوح هيئة الثور الجسدية، فهو أبيض اللون به خطوط، قوائمه موشاة باللون الأسود، وقد أصبح وحيدا طرد عن حلائله. فلجأ إلى شجرة الأرطى ليبيت ليلته يقلب أنظاره في هذه الصحراء الشاسعة ويسمع أصوات الأشباح التي دفعتها

[1] ديابوذ: نوع من الثياب –أرندج: جلد أسود –العظلم: نبات أسود، يستخرج منه صباغ للشعر.
[2] العذوب: الذي ترك الأكل لشدة العطش – للسماء: المقصود، المطر – العزوبة: الأرض البعيدة.
[3] الحقف: الرمل الماثل – الخريق: الريح القوية – أقتم: أغبر
[4] روقية: قرنية – عريان: بادي – أهيم: غير مستقر.
[5] امرؤ القيس،الديوان،دار بيروت للطباعة والنشر- بيروت، 1983م، (ص 115-116).
[6] أحقب :حمار الوحش – القارح :هو المسن و هو أشدها- شربة و عرنان :موضعان – الطاو:هو الثور الوحشي –الموجس :الخائف الحذر.
[7] تعشى :دخل في العشاء-الظلوف :الجوافر –المكنس:ملجأ الوحش،تستكن فيه من الحر.
[8] يهيل :يفرق التراب عن الارض –نباث :الذي يزيل التراب الظاهر في الهاجرة لتباشر إبله برد الثرى فيسكن عطشها- المخمس:الذي ترد إبله الخمس، و هو أن أن ترعى ثلاثة أيام و ترد الماء في الرابع.
[9] الأحم : الأسود –المكردس: الموثق،المقيد.
[10] الحقف :الرمل المعوج- ألثقتها:بلتها- الغبية:الدفعة من المطر-المعرس:الباني بأهله.

إليه الرياح محاولا صد هذه الرياح عن جسمه بقرنيه، ويحاول التغلب على الأمطار التي ألجأته للأرطى وقد أخذت ترميه بحبات البرد الجامد. فيقول:

كَأَنَّمَا الرَّحْلُ مِنْهَا فَوْقَ ذِي جَدَدٍ ذبَّ الرِّيادِ إِلَى الأَشْبَاحِ نَظَّارِ[1]
مُطَّرِدٌ أُفْرِدَتْ عَنْهُ حَلاَئِلُهُ مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ أَوْ مِنْ وَحْشِ ذِي قَارِ
مجرّس وحد جأبٌ أَطَاعَ لَهُ نَبَاتَ غَيْثٍ مِنَ الوَسْمِي مِبْكَارِ[3]
سُرَاتَهُ مَا خَلَا لَبَانَة لَهْقٍ وفِي القَوَائِمِ مِثْلُ الوَشْمِ بِالقَارِ[4]
بَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ شَهْبَاءٌ تَسْفَعُه بِحَاصِبٍ ذَاتَ إِشْعَانِ أَوْ أَمْطَارِ[5]
وَ بَاتَ ضَيْفًا لِأَرْطَاةٍ وأَلْجَاه مَعَ الظَّلاَمِ إِلَيْهَا[6] وَابِلٌ سَارِ
بَاتَتْ عَلَيْهِ لَيْلَةٌ رَجَبِيَةٌ نَصَبًا تَسُحُ المِاءَ أَوْ هِيَ أَبْرَدُ
يَنْفِي بِأَطْرَافِ الآلاَءِ شَفِيفَهَا فَغَدَا وَكُلُّ خَصِيلٍ عُضوٌ يَرْعَدُ[7]
كَالكَوْكَبِ الدُّرِّي يُشْرِقُ مَتْنُهُ خرْصًا خَمِيصًا صُلْبُهُ يَتَأَوَّدُ[8]
فِي رَوْضَةِ ثَلْجِ الرَّبِيعِ قَرَارُهَا مَوْلِيَةٌ لَمْ يَسْتَطِعْهَا الرُّودُ[9]

لقد شاءت قسوة القدر أن يكون الثور في موطن الخوف والمهابة الدائمة، ولذا فقد كانت حياته تتأرجح بين القتال والهرب، ففضل لبيد أن يكون ثوره مقاتلا، حيث صوره يصارع كلاب الصيد إلى أن أرداها صريعة، ملطخة بالدماء معفرة بالتراب. يقول:[10]

حَتَّى أَشَبَّ لَهُ ضَرَّاء مُكلبٍ يَسْعَى بِهِنَّ أَقَب كَالسَّرْحَانِ[11]

[1] ذي جدد :الطرائق- ذب : بمعنى أنه لا يستقرفي موضع واحد – الرياد : التجوال.
[2] مُطرد:كثير الطرد لمصارعيه من الثيران- أفردت عنه حلائله : فارقته بقرات الوحشي- وجرة، و ذي قار:موضعان مشهوران بالبقر الوحشي.
[3] مجرس : خائف،مصوت – جأب:صلب غليظ.
[4] سراته: ظهره- لبانه: صدره- لهق: أبيض.
[5] شهباء: شديدة البرودة- تسفعه: تلطم وجهه- حاصب: الريح الباردة المحتملة بالحصى- إشعان: ما تتأثر من ورق العشب.
[6] الأرطاة: شجرة تنبت في الرمل، ورقها دقيق، و ثمرها كالعناب.
[7] الآلاء: الشجر- شفيفها: الريح الباردة- خصيل: مجتمع.
[8] الدري: الثاقب، المضيء- خرصا: جائعا- خميصا: ضامرا- يتأود: يتلوى.
[9] قرارها: وسطها- الرود: أي لم يسبق إلى رعيها أحد، فهي غزيرة طيبة.
[10] لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، (ص 205).
[11] أشب له: رفع له- الأقب: الصائد، و هـ ضامر البطن كالذئب.

فَحَمَـــى مُقَاتِلُـــهُ وَذَادَ بِرَوْقِـــهِ جِمَـى المِحَـارِبِ عَـوْرَةِ الصّـبْحَانِ[1]

شـــزارًا عَلَـــى نَـــبْضِ القُلُـــوبِ ومُقْـــدِمًا فَكَأَنَّمَـــا يَخْتلهَـــا بِســـنَانِ

حَـتَّى انْجَلَـتْ عَلَيْـهِ عِمَايَـةُ شَـفْرَةٍ فَكَـــأَنَّ صَـــرْعَهَا ظُـــرُوفُ دَنَّـــانِ

أمَّا بعض الشعراء فقد اختاروا له الفرار، حيث ينهب الأرض عدوا، مثيرا الغبار في وجه الكلاب التي تطارده. يقول امرؤ القيس:[2]

فَـــأَدْبَرَ يَكْسُـــوهَا الرُّغَـــامُ كَأَنَّـــهُ عَلَـى الصَّـمَدِ والآكَـامِ جَـذْوَةِ مُقْـبِسِ[3]

و يصف بشر هربه، فيقول:[4]

فَجَـالَ عَلَـى نَفَـرٍ تَعـرض كَوْكَـبٍ وقَدْ حَالَ دُونَ النَّقْعِ والنَّقْعِ يَسْطَعِ

و يرسم المثقب العبدي صورة رائعة للغبار الذي يثيره:[5]

يَتْبَعُـــــهُ فِي إِثْـــــرِهِ وَاصِـــــلِ مِثْـــلَ رَشَـــاءِ الحُلْـــبِ الأَجْـــرَدِ

و على شاكلتهم، رسم الشعراء صورا بديعة لهذا الثور وهو يطوي الأرض طيا، نذكر منهم: أوس بن حجر[6]، الأعشى[7]، المثقب المثقب العبدي[8].

– أمَّا الشخصية الثانية وهي شخصية الكلاب، فقد حظيت لدى الشعراء بنصيب وافر من الاهتمام فذكروا أسماءها وهي: زنباع وفارغ عند بشر[9]، وضمران وواشق عند النابغة[10]، وعطاف ومجدول وسلهبة وكساب عند الأعشى[11]، وركاح وسائل عند لبيد[12]. كما ذكروا أوصافها: فهي مغرثة ضامرة[13]، نواحل مسترخية الآذان[1]، زرق عيونه كنوار شجر العضرس الأحمر[2]، وهي عادة ما تكون تكون متجمعة متقاربة يسوقها صياد نهم، ويدفعها أمامه. فيقول مركِّزًا على وصف حالها:[3]

[1] عورة الصحبان: من خلعهم.

[2] امرؤ القيس، الديوان، (ص 116).

[3] الرغام: التراب– الصمد: ما غلظ من الأرض و صلب– المقبس: الذي عنده من النار ما يقبس به.

[4] بشر بن أبي خازم، الديوان، (ص 121).

[5] المثقب العبدي، الديوان، (ص 47).

[6] أوس بن حجر، الديوان، تحقيق وشرح : محمد يوسف ، دار صادر– بيروت، ، ط2،(ص 43).

[7] الأعشى، الديوان، (ص 88).

[8] المثقب العبدي، الديوان، (ص 49–50).

[9] بشر بن أبي خازم، الديوان، (ص 104).

[10] النابغة الذبياني، الديوان، (ص 32–33).

[11] الأعشى، الديوان، (ص 22).

[12] لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، (ص 116).

[13] بشر، الديوان، (ص 56) – الأعشى، الديوان، (ص 195) –امرؤ القيس، الديوان، (ص 116).

فَفَاجَأْتْـــهُ ولَمْ يَرْهَـــبْ فَجَاءتَهَـــا غُضْـــفٌ نَوَاحِـــلُ في أعناقهـــا القِـــدَدُ[4]

معروقـــــة الهـــــام، في أشـــــداقها ســـعه وللمرافـــق فيمـــا بينهـــا بَـــدَدُ

أمَّا أوس بن حجر، فيقول:[5]

يَسْـــعَى بِغُضْـــفٍ كَأَمْثَـــالِ الحَصَـــى زَمَعًـا كَـأنَّ أَحْنَاكَهَـا السُّـفْلَى مَآشِـيرُ[6]

ويُعْنَى النابغة بتصوير نفسيات كلاب الصيد، فيذكر أنَّ نفوسها يملؤها الطمع، ويهيج شهوتها حبُّ القتال وإغراء النصر، ثم يداخل بعضها الخوف، يمزقه الألم الصارخ في الصدر، فينقبض ويلتوي ثم يهوي على القرن في جنوح، يعضُّه الوجع ويكدمه فإذا رأى (واشق) إقعاص صاحبه راجعته نفسه في أمر على مرارة الجرح صامتا أو محمولا على الصمت، فيقول النابغة:

فَارْتَاعَ مِنْ صَوْت كَلاَّبٍ فَبَاتَ لَهُ طَوْعَ الشَّوَامِتِ مِنْ خَوْفٍ ومِنْ صَرَدِ[7]

فَبَـــتَّهُنَّ عَلَيْـــهِ واسْـــتَمَرَّ بِـــهِ صُـمِعُ الكُعُـوبِ بَرِيئَـاتٍ مِـنَ الحَـرِدِ[8]

فهـابَ ضُـمْرَانُ مِنْـهُ حَيْـثُ يُوَزِعُـهُ طَعْـنُ المِعَـارِكِ، عِنْـدَ المحجَـرِ، النَّجْـدُ[9]

شَـكَّ الفَرِيضَـةَ بالمِـدرى فَأَنْفَـذَهَا شَـكَّ المُبَيْطِرِ إِذْ يُشْـفَى مِـنَ العَضَـدِ[10]

وَ كَأَنَّهُ خَرِجًا مـن جَنْـبِ صَـفْحَتِهِ سـفُّودُ شَـربٍ نَسُـهُ عِنْـدَ مَفْتَـأَدِ[11]

فَظَـلَّ يَعْجُـمُ أَعْلَـى الـرَّوقِ مُنْقَبِضًـا فِي حَالِكَ اللَّونِ صدقٍ غَيْرَ ذِي أَوَدِ[12]

لَمَّـــا رَأى وَاشِـــقٌ إِقْعَـــاصَ صَـحِبِهِ ولاَ سَـبِيلَ إلى عَقْـلٍ ولاَ قَـود

---

[1] أوس أبو حجر، الديوان، (ص 51)-لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، (ص209) – الأعشى، الديوان، (ص 195-261) – بشر بن أبي خازم، الديوان، (ص 51).

[2] المصدر نفسه (ص 121).

[3] المصدر نفسه (ص 56).

[4] القِدَدُ: السّير يقدُّ من الجلد.

[5] أوس بن حجر، الديوان، (ص 43).

[6] كأمثال الحصى: أي قوية مستجمعة – زمعًا: يسير ببطء- مآشير: مناشير

[7] الشوامت: الأعداء- الصرد: سرعة البرد.

[8] بثهن: فرقهن- الصمع: الضوامر- الكعوب: الكعب هو المفضل من العضام- الحرد: استرخاء عصب اليد من شدة العقال.

[9] ضمران: اسم كلب- يوزعه: يغريه- المعارك: المقاتل- المحجر: الملجأ- النجد: الشجاع.

[10] شك: أنفذ- الفريضة: موضع مرجع الكتف- المدرى: القرن- المبيطر: البيطار- العضد: داء يأخذ في العضد.

[11] الصفحة: الجانب- السفود: حديد يشوى عليها اللحم- الشرب: جماعة من الناس يشربون- مقتأد: موضوع النار الذي يشوى فيه.

[12] يعجم: يمضغ- الروق:الفرق- الصدق: المستوى- أود: اعوجاج.

قَالَــتْ لَــهُ الــنَّفْسُ: إِنِّي لاَ أَرَى طَمَعًا وإِنَّ مُوْلاَكَ لَمْ يَسْلَمْ ولَمْ[1] يَصِدِ[2]

أمّا امرئ القيس فيحفل باللون والحركة، ويصف المعركة متحدثا عن الهجوم المفاجئ للكلاب على الثور وعن تصميمها على مواصلة المعركة والإيقاع به، فقد أخذت تنهش ساق الثور. حيث شبّه امرئ القيس هذا المنظر بولدين يجذبان ثوب الراهب العائد من بيت المقدس تبركا به. وانثنت الكلاب بعد تعبها، وبقي الثور كبطل شُحِنَ قوة ونشاطا فيقول:[3]

فَصَبَّحَهُ عِنْدَ الشُرُوقِ غُدْيَةً ابن مُرَّ أو كِلاَبُ ابن سِنْبِسِ
مُغَرَّثَةً زُرْقًا كَأَنْ عُيُونَهَا من الذَّمْرِ والإِيحَاءِ نَوَّارُ عَضرَسِ[4]
فَادْبَرَ يَكْسُوهَا الرَّغَام كَأَنَّه على الصَّمّدِ والآكَامِ جِذْوَةُ مُقْبِسِ[5]
فَأَدْرَكْنَهُ يَأْخُذَنَ بالسَّاقِ والنَّسَاك مَا شَبْرَقَ الوِلْدَانُ ثَوْبَ المقدَّس[6]
و غَوَّرْنَ فِي ظِلٍّ الغَضا وتَرَكْنَهُ كَقَرْمِ الهِجَانِ الغَادِرِ المتَشَمِّسِ[7]

وقد أولى الشعراء لشخصية الصياد بعض الاهتمام حيت التفتوا إليها التفاتا يسيرا ثم انصرفوا عنها. إن حدود هذه الشخصية معلومة ويسيرة، بعيدة عن تحريك الأحداث، فالأسباب التي تربطها بالكلاب اقف عند حدود استثارتها وتحريضها قبل المعركة، وتقتصر على إغرائها بالثور وقت القتال، وهو موقف لا يغني من الأمر الشيء الكثير.

إنَّ الصياد في قصة الثور الوحشي هو كلاَّب دائما، وأنَّ كلابه هي سبيله الوحيد إلى تحقيق رزقه ورزق عياله، وقد أعطى الشعراء تسميات مختلفة للصياد فهو: "ابن سنبس" و"ابن مرَّ" عند بشر بن أبي خازم[8]،و هو من "أسد" في شعر أوس بن حجر[9]، ومن "جديلة أو لحيان" أو "عوف ابن الأرقم البكري"[10] في شعر الأعشى، وربما كان الاسم هو حظ الصياد من الشاعر لا يتجاوزه إلى مستوى آخر.

[1] واشق: اسم الكلب الآخر- الإقعاص: القتل- العقل: الدية- القود: القصاص.
[2] النابغة الذبياني، الديوان، (ص 32-33).
[3] امرؤ القيس: الديوان، (ص 116).
[4] المغرثة: المجوعه- الذمر: الإغراء و التسليط- العضرس: بقلة حمراء الزهرة.
[5] الرغام: التراب- الصمد: ما غلظ من الأرض و الصلب.
[6] النسا: عرق في الساق- شبرق: مزق- المقدس: الراهب الذي يأتي بيت المقدس.
[7] غورن: دخلن الغور- الغضا: ضرب من الشجر- القرم: الفحل- الهيجان: البيض- الفادر: الذي ترك الضّراب.
[8] بشر بن أبي خازم،الديوان، (ص 116).
[9] أوس بن حجر: الديوان، (ص 42).
[10] الأعشى،الديوان، (ص 194، ص 279).

أمَّا عن الصورة التي رسمها له الشعراء، فهي مختلفة فيما بينهم، إلاَّ أنها تكوّن مشاهد تبين طائفة من صفاته الجسدية، وقدرا يسيرا من ملامحه النفسية.

فمما تقف عليه عند أوس بن حجر، مصوِّرا سعي الصياد بالكلاب قوله:

أَحَسَّ رِكْزَ قَنِيصٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ فَانْصَاعَ مُنْثَوِيًا والخَطْوُ مَقْصُورُ[1]

يَسْعَى بِعُضْفٍ كَأَمْثَالِ الحَصَى زَمَعًا كَأَنَّ أَحْنَاكَهَا السُّفْلَى مَآشِيرُ[2]

و صوّر بشر ضموره، ولونه المغبر وذكر صبيته الشعث الجياع:[3]

وَ بَاكَرَهُ عِنْدَ الشُّرُوقِ مِكْلَبٌ أَزَلُّ كَسَرْحَان القَصِيمَةِ أَغْبَرُ[4]

أَبُو صِبْيَةٍ شُعُثٌ تَطِيفُ بِشَخْصِهِ كَوَالِحِ أَمْثَالِ اليَعَاسِبِ ضُمَّرُ[5]

أما الأعشى، فأشار إلى تغير لون وجهه لما أصابه من الإعياء، فقد قضى ليلته مجافيا للنوم في انتظار قدوم الطريدة:[6]

لَمْ يَنَمْ لَيْلَةَ التَّمَامِ لِكَيْ يُصْبِحَ، حَتَّى أَضَاءَهُ الإِشْرَاقُ

سَاهِمَ الوَجْهِ مِنْ جَدِيلَةٍ أَوْ لِحْيَان، أَفْنَى ضِرَاءَهُ الإِطْلَاقُ[7]

و يعدُّ الأعشى من أكثر الذين اهتموا بشخصية الصياد، ويظهر ذلك في قصيديته اللامية التي يصف فيها نحوله، وميل لونه إلى السواد، وخبرته في مهاجمة الوحش، والانقضاض عليه، فيقول:[8]

أَطْلَسٌ طَلاَّعُ النِّجَادِ عَلَى الوَحْشِ ضَئِيلاً مِثْلَ الفنَاةِ أَزَّل[9]

فِي إِثْرِهِ غُضْفٍ مُقلَّدَةٍ يَسْعَى بِهَا مُغَاوِرٌ أَحْطَل[10]

كَالسَّيدِ لاَ يَنْمِي طَرِيدَتَهُ لَيْسَ لَهُ مِمَّا يُحَانُ حَوْل[11]

---

[1] ركز: صوت خافت- انصاع: انفتل راجعا- منثويا: عائدا موليا- مقصور: أي قصير بسبب الخوف.

[2] أوس بن حجر، الديوان، (ص42).

[3] بشر بن أبي خازم، الديوان، (ص 84).

[4] أزلّ: خفيف- القصيمة: ما سهل من الأرض و كثر شجره.

[5] شعث: متفرق الشعر من تعب أو غيره- كوالح: عوابس- اليعاسيب: اليعسوب، طائر صغير.

[6] الأعشى، الديوان، (ص 194).

[7] ساهم الوجه: أراد، الصياد المنتظر- جديلة و لحيان: من أحياء العرب- الضراء: كلاب الصيد- الإطلاق: المنطلقة.

[8] المصدر السابق (ص 261).

[9] أطلس: تغير لونه و مال إلى السواد- الأزل: القليل اللحم في الفخدين و العجز.

[10] أحطل: رمادي اللون.

[11] يحان: من الحين، الهلاك- حول: تحول أو نجاة.

و يقدم لنا النابغة صورة للمعركة التي نشبت بين الثور والكلاب، فبعد أن وصف الليلة الشهباء التي أخذت تسفع الثور بالبرد والأمطار، انجلت هذه الليلة عن صبح، جاءه بصياد عاري الأشاجع يرتدي ثيابا بالية، يسعى بكلاب طال صيامها وتجويعها، فهي نحيلة من شدة الجوع. وما أن استقر الثور قليلا بعد هروبه حتى أرسل الصياد في إثره كلابه العشرة الضارية، ولم يتوان عن ضربها، فشك بقرنه صدر أولها ثم انثنى للثاني بطعنة بعيدة الغور، وللثالث طعنة نافذة، ثم بقي في السبعة الباقين يكر بالروق عليها حتى شفى نفسه وقضى مأربه منها، ثم انقض كالكوكب الدرّي يبدي فنونا من العدو السريع، يقول:[1]

حَتَّى إِذَا مَا انْجَلَتْ ظَلْمَاءُ لَيْلَتِهِ ... وأَسْـفَرَ الصُـبْحُ عنـه أَيَّ إِسْـفَارِ

أَهْوَى لَهُ قَانِصٌ يَسْعَى بِأَكْلُبِهِ ... عَارِي الأَشَاجِعِ مِنْ قُنَّاصِ أَنْمَارِ[2]

مُحَالِفُ الصَّيْدِ، هبَّاشٌ، لَهُ لَحَمٌ ... مـا إِنْ عَلَيْـهِ ثِيَـابٌ غَـيرُ أَطْمَـارِ[3]

يَسْـعَى بِعُضْـفٍ بَرَهَـا، فَهِـيَ ... طُـولُ ارْتِحَـالٍ بِهَـا مِنْـهُ، وتَسـيارِ[4]

حَـتَّى إِذَا الثـورُ، بعـد النَّفْـرِ، ... أَشْلَى، وأَرسل غُضْفًا، كُلُهَا ضَارِ[5]

فَكَرَّ مُحْمِيَةً مِـنْ أَنْ يَفِـرَّ، كمـا ... كَرَّ المِحَامِي حِفَاظًا، خِشْيَةَ العَارِ

فَشَـكَّ بـالرَّوَقِ منه صَـدْر أَوَّلِهَـا ... شَـكَّ المِشَـاغِبِ أَعْشَـارًا بِأَعْشَـارِ[6]

ثم انثنى، بَعدُ، للثَّانِي فَأقصَدَهُ ... بـذاتِ ثَغْـرٍ بعيـدِ القَعْـرِ، نعَّـارِ[7]

و أثبـتَ الثالـثَ البـاقِي بنَافِـذَة ... مِـنْ بَاسِـلٍ، عـالِمٍ بـالطَّعْنِ، كـرَّارِ

و ظـلَّ، في سَـبْعَة منهـا لَحِقْـنَ ... بـه يكُـرّ بـالرَّوق فيهـا كـرَّ إِسْـوَارِ[8]

حـتى إذا مـا قضـى منهـا لُبانَتَـهُ ... وعَـــادَ فيهـــا بإقبَـــالٍ وإدْبَـــارِ

انقــضَّ، كالكوكــب الــدُرِّي ... يَهْـوِي، ويَخْلِـطُ تقريبًـا بإحضَـارِ[9]

---

[1] النابغة الذبياني، الديوان، (ص 53-54).

[2] عاري الأشاجع: أصول الأصابع المتصلة بعصب ظاهر الكف- أنمار: حي من بين أسد.

[3] محالف الصيد: ملازمه كالحليف، و القصد أن له خبرة بالصيد- هباش: كساب بالصيد- لَحِمُ: يكثر أكل اللحم- أطمار: الثياب البالية.

[4] براها: أنحلها.

[5] أشلى: أغراها بمطاردة الثور.

[6] الروق: القرن- المشاغب: النجار.

[7] نعَّار: يفور بالدم.

[8] إسوار: قائد الجيش الفارسي، لأنه يكون لابسا سوارين في يديه.

[9] منصلتا: عَدَا عدوًا سريعا- تقريب و إحضار: ضربان من عدو الفرس.

وعند لبيد، يبدأ المشهد بأن ينكشف الصبح عن كلاب عوابس كالنشاب، دامية النحور. ولكنها لم تُثِر مخاوف الثور حين رآها متجهة نحوه، رغم أنَّ عيونها كانت تصب شرارا، فواجه المعركة ودافع عن نفسه كبطل مغوار، ولم يرض لنفسه الجبن والفرار، فتارة يطعن كلبًا من أمامه وأخرى من خلفه أو بجانبه. وهكذا حتى ترك الكلاب صرعى مدماة النحور:

فأصبحَ وانشَقَّ الضبابُ وهَاجَهُ أخـو قفـرَةٍ يُسـلى ركاحًـا وسـائلاً[1]

عوابِسَ كالنُّشَّابِ تَدْمَى نُحُورهَا يَـــرَيْنَ دِمَـــاءَ الهَادِيَـــاتِ نَـــوَافِلاَ

فَجَـالَ ولَمْ يَعْكِـمْ لعُضْـفٍ كأنَّهَـا دقَـاقُ الشَّـعيلِ يَبْتَـدِرْنَ الجَعَـائِلاَ[2]

لصَائِبِهَا في الصَّيْدِ حَقٌ وطُعْمَةٌ ويَخْشَـى العَـذأبَ أن يُعَـرَّدَ نَـاكِلاَ

قِتَـالَ كَمِـي غَـابَ أنصَـارُ ظَهـرِهِ ولا في الوُجُـوهَ المـذكَرَاتِ البَواسِـلاَ[3]

يَسُـــرْنَ إلى عَوْرَاتِـــهِ فكأنَّمَـــا لِلَبَّاتِهَـــا يُنْجِـــي سِـــنَانًا وعَـــامِلاَ[4]

فَغَادَرَهَـا صَـرْعَى كُـلُّ مَزُحَـفٍ تَـرَى القَـدَّ فِي أَعْنَـاقِهِنَّ قَـوَافِلاَ[5]

أمَّا نهاية قصة الثور الوحشي، فتصب في أحد اتجاهين، يحكمها في ذلك الغرض الذي يقصد إليه الشاعر، فإذا كان **مديحا** كانت النهاية سعيدة متطلعة للحياة بأعين الأمل، أمَّا إذا كان الغرض **رثاء** كما هو الشأن عند شعراء بني هذيل، فتأتي قصة الثور عقب الحديث عن الموت والفناء الذي يدرك كل موجود، ولا يكون هناك ذكر للناقة، وتتخذ النهاية مسارًا آخر وهو مصرع الثور، وهو اختلاف في النهاية فقط، ولا يتعدى إلى أجزاء القصة الأخرى، فبعد أن يعيش الثور ليلة قلقة باردة، تزيده خوفا وهلعا، يلوذ بشجرة الأرطاة للاحتماء، ويستفيق على كلاب، فيصارعها ويقضي عليها، ولكن سهما من سهام الصياد يرميه فيصيب منه مقتلا[6].

3- جدلية الصراع في قصة الثور عند النابغة الذبياني:

وقد كانت قصة الثور من أكثر هذه القصص تعبيرًا عن هذا الجدل القائم في الحياة، وعن هذا التصادم بين القوى في سبيل الانتصار للحياة. ويمكن أن نستجلي أوجه هذا الصراع وعلاماته من خلال ما يلي:

يقول النابغة الذبياني:[7]

---

[1] أخو قفرة: يقصد الصياد، و القفرة الخلاء من الأرض لا ماء فيها.

[2] لم يعكم: هرب و لم يكُرَّ.

[3] الكمي: الشجاع،

[4] لبَّاتها: اللبَّة، موضع القلادة من الصدر- السّنان: الرمح و العامل: صدر الرمح، و هو ما يلي السِّنان.

[5] لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، (ص 116).

[6] ينظر: عينية أبي ذؤيب الهذلي، ديوان الهذليين، الدار القومية للطباعة و النشر- القاهرة، 1385 هـ- 1965 م، (ص 10-15).

[7] النابغة الذبياني ، الديوان، (ص 51-54).

كأنَّمَا الرَّحْلُ مِنُهَا فَوْقَ ذِي جدَدٍ ذب الرِّيَادِ إِلَى الأَشْبَاحِ نظَارِ
مُطَرَّدٌ أُفْرِدَتْ عَنْهُ حَلاَئِلُهُ مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ أَوْ مِنْ وَحْشِ ذِي قَارِ
مُجَرَّسٌ وحد جَأْبٌ أَطَاعَ لَهُ نَبَاتُ غَيْثٍ مِنَ الوَسْمِي مِبْكَارِ
بَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ شَهْبَاءُ تَسْفَعُهُ بِحَاصِبٍ ذَاتَ إِشْعَانٍ وأَمْطَارِ
وَ بَاتَ ضَيْفًا لِأَرْطَاةٍ وأَلْجَأَهُ مَعَ الظَّلاَمِ إِلَيْهَا وَابِلٌ سَارِ
حَتَّى إِذَا مَا انْجَلَتْ ظَلْمَاءُ لَيْلَتِهِ وأَسْفَرَ الصُّبْحُ عَنْهُ أَيَّ إِسْفَارِ
أَهْوَى لَهُ قَانِصٌ يَسْعَى بِأَكْلُبِهِ عَارِي الأَشَاجِعِ مِنْ قَنَّاصِ أَنْمَارِ
مُحَالِفُ الصَّيْدِ هَبَّاشٌ لَهُ، لَحِم مَا إِنْ عَلَيْهِ ثِيَابٌ غَيْرُ أَطْمَارِ
يَسْعَى بِغُضْفٍ بَرَاهَا فَهِيَ طَاوِيَةٌ طُولَ ارْتِحَالٍ بِهَا مِنَّةٌ وتِسْيَارِ
حَتَّى إِذَا الثَّوْرُ بَعْدَ النَّفَرِ أَمْكَنَهُ أَشْلَى وأَرْسَلَ غُضْفًا كُلُّهَا ضَارِ
فَكَرَ فِي مَحْمِيَةٍ مِنْ أَنْ يَفِرَّ كَمَا كَرَّ المِحَامِي حِفَاظًا خِشْيَةَ العَارِ
فَشَكَّ بِالرَّوْقِ مِنْهُ صَدْرَ أَولَهَا شَكَّ المِشَاغِبِ أَعْشَارًا بِأَعْشَارِ
ثُمَّ انْثَنَى بَعْدُ لِلثَّانِي فَأَقْصَدَهُ بِذَاتِ ثَغْرٍ بَعِيدِ الفَقْرِ نَّعَارِ
وَ أَتْبَتَ الثَّالِثِ البَّاقِي بِنَافِذَةٍ مِنْ بَاسِلٍ، عَالِمٍ بِالطَّعْنِ، كَرَارِ
وَ ظَلَّ، فِي سَبْعَةٍ مِنْهَا لَحِقْنَ بِهِ يَكِّرُ بِالرَّوْقِ فِيهَا كَرَّ إِسْوَارِ
حَتَّى إِذَا مَا قَضَى مِنْهَا لُبَانَتُهُ وعَادَ فِيهَا بِإِقْبَالٍ وإِدْبَارِ
انْقَضَّ، كَالكَوْكَبِ الدُّرِّي مُنْصَلِتًا يَهْوِي، ويَخْلِطُ تَقْرِيبًا بِإِحْضَارِ

يشبه الشاعر ناقته بثور وحشي مخطط سكنه القلق واستبد به الخوف، وهنا يمكن أن يكون الثور معادلا موضوعيا للإنسان فما ذلك القلق إلاَّ القلق الوجودي لديه، والخوف هو خوف التناهي والفناء، فهو لا يستقر في مكان ولا يهدأ له بال، يتخوف من الأشباح، لقد خبر العراك مع أقرانه ومارس طرادها، وإبعادها. فارقته حلائله من بقر الوحش، فهو يطلبها ويريدها.

إنَّ أصله من (وجرة) أو من (ذي قار)، وهما مكانان مشهوران بثيرانهما الفتية، وأبقارهما الجميلة البهية، لقد رعى النبات البكري الذي سقته الأمطار الموسمية ، فصلب عوده، واكتمل نموه، فهو وحيد غليظ، جاف، يكثر من التصويت، إنه أبيض الظهر، موشى الأكارع بالأسود.

في ليلة تتجمد فيها الأطراف، بات الثور عند شجرة الأرطى التي كانت تدفع عنه تلك الرياح الباردة المحملة بحبات الرمل، وقطرات المطر، فهي وسيلته التي توفر له الحماية من قهر الطبيعة.

لقد اجتمعت كل هذه القوى السالبة، من ريح ومطر ورمال، وعملت على الفتك بالثور وجعلته يستكين إلى الخوف واليأس والفزع من المصير المجهول الذي ينتظره، وكانت هذه الشجرة بالمقابل أداته في حفظ حياته وبقائه واستمراريته.

ومع الصباح الباكر، رمى القدر في طريقه صيادًا ماهرًا، من صيادي أنمار يسعى بكلابه التي يصيد بها. لقد كان الصياد خلق الثياب، مشمرًا للصيد تبدو أصابعه عارية من اللحم ليس له مورد يقتات منه ويعيله غير الصيد، فهو وسيلته للحياة والبقاء. وكانت كلابه ضغفا، نحيفة من كثرة السير والتجوال وشدة الجوع. وبعد أن أصبح الثور على مقربة من الصياد، صاح هذا الأخير بكلابه الضارية مسلطًا إياها عليه.

إنَّ تصوير الشاعر لحالة الكلاب الجائعة النحيفة وإغراء الصياد لها، وكذا الصياد الشاحب الفقير هو في الحقيقة إمعان في تصوير قوى السلب، وتجسيد لحالة قصوى من الجوع والحاجة لهذا النزال الشرس، وتعميق لمعنى الصراع أو للعنصر الدرامي من خلال مشهد المعركة بين الثور والكلاب.

فهذه الصورة الشاحبة تعد –إذن– حافزًا للقتال من أجل البقاء. ولكن الثور أنف من الفرار، وكره الهرب، وهنا وقع الصدام بين الكلاب والثور، فكانت النتيجة أن طعن بقرنه صدر الكلب الأول طعنة ماهر بالضرب، ثم انثنى للثاني فقتله بطعنة نجلاء، تركت ثغرا عميقا، وتوجه للثالث بضربة قاضية نافذة، ثم حميت المعركة أكثر، وأحاطت به سبعة كلاب لحقت به ولكنه لم يستسلم بل كان يواجه ببسالة الفارس الشجاع البطل، يضرب هذا، ويرمي ذاك، حتى أَكَّد انتصاره. ومن هنا يتضح لنا أكثر أنَّ الثور معادل موضوعي للإنسان (الشاعر) لأنَّ العربي من شيمه الشجاعة والإقدام ومواجهة العدو، ولهذا أسقط الشاعر هذه الصفات على الثور فجعله يفضل المواجهة على الفرار. وأضيف إلى هذا أنَّ الثور وهو: الإنسان، يمثل صراع الإنسان من أجل البقاء ضد قوى الإفناء والهدم. وفي النهاية انطلق الثور في الفضاء الرحب مضيئا كالكوكب، منصلتا كالسيف، يجري مقبلا على الحياة. واعدًا باستمرار التحدي والمواجهة.

4- الأبعاد الدلالية وأشكال الحضور في صورة الثور الوحشي:

و من خلال هذا المضمون الذي تقدمه لنا مقطوعة النابغة والتي هي في الحقيقة صورة من ذلك القصص التي تداوله شعراء الجاهلية، إلاَّ ما يمكن أن نقف عليه من بعض الاختلافات البسيطة بالزيادة أو النقصان. من خلالها يمكن أن نستجلي أهم المشاهد والأحداث التي أسهمت في تشكيل الموقف الدرامي، وأبانت عن موقف الشاعر من مشكلته الأزلية الكبرى في الوجود، مشكلة الفناء والتناهي.

و ذلك انطلاقا من الملاحظات الآتية:

– إنَّ أول ما يتلقاه الثور/ الإنسان من قوى السلب، هو محنة الليلة بظروفها القاسية، وهي تشير إلى ما يتهدد حياة الإنسان من عوامل القهر في الطبيعة. كما تكشف عن موقفه الإيجابي في التصدي لها.و يظهر الثور في هذا المشهد الأول كائنا أعزل أتعبته الوحدة والخوف والقلق، وليس هذا في تقديري إلا وجها من وجوه الضعف الذي يحيل على ضعف الإنسان وإحساسه بهشاشة وجوده أمام قوى القهر من حوله. ما يولّد الإحساس بالواحدة والعزلة ويبعث في أعماقه ظلالا من التوتر والخوف.كما تشير حالة

الفرع والاضطراب التي تحل بالثور في تلك الليلة المرعبة إلى ما يسكن وعي الإنسان من خوف وقلق دائم على مصيره، ووجوده المهدد بالفناء.

– وحينما تتراجع الليلة الرهيبة المفزعة، وتحل إشراقة الصباح يهيِّأ للثور أنه حقق الخلاص من أسر المعاناة، لكنه يلقي نفسه قد أفلت من محنة ليقع في أخرى أشد. حيث يفاجأ بصياد نهم أنهكه الجوع والسهر وطول الترقب، وفي صحبته كلاب مدرَّبة جائعة متحفزة غاية التحفز للانقضاض على الطريدة. وهنا تنشب معركة دامية بين الثور والكلاب ليكتب فيها البقاء للأقوى.

وهي معركة تجسد موقفا داميا تتجاذبه قوى الخير ممثلة في الإنسان/الشاعر من جهة، وقوى الشر، مجسدة في الصياد والكلاب من جهة ثانية، والتي تعد أيد للدهر يرمي بها من أراد لينزل به الموت. فإنَّ أخطأته اليوم وكان في مستوى النزال والمواجهة، أرجأته إلى فرصة أخرى.

– ولعلنا نقرأ في هذا التعاقب المباشر بين محنة الليل التي تصور صراع الأحياء مع الطبيعة، ومحنة النهار من خلال المعركة بين الأحياء، رؤية الشاعر الجاهلي للوجود والحياة، وأنها محكومة بهذا الصراع الدائم. وأنَّ الإنسان في صدام لا ينقطع مع قوى الدهر. ولا شك أنَّ في توظيف الليل والنَّهار ما يحيل على هذه الديمومة الممتدة على مساحة الزمن.

– كما أننا نسجل، انطلاقا مما يوصف به الثور من القوة والبسالة، والإصرار على المواجهة، وما يتوفر له من الماء والمرعى أنَّ في ذلك تعبيرا واضحا عن تطلع الشاعر وتوقه إلى الخصوبة والحياة، وعن إرادته في مقارعة الدهر وحفظ البقاء.

– وبقدر ما حرص الشعراء على التعالي بصورة الثور وتتريهها عن السوء، فإنهم تلوها بصورة أخرى منفرة، تبعث على الاشمئزاز والخوف باعتبارها رمزًا على الشر، هي صورة الصياد النحيف الجسم، الغائر العينين، وهو صاحب فاقة وحرمان، يرتدي ثيابا رثة، له أنياب صفراء طويلة، وهو شبيه بذئب ماكر محتال، دائم الشهوة للفريسة. كما تبرز هذه الصورة كلاب أضناها الجوع وكثرة التجوال، بالإضافة إلى أنها مدربة على الفتك والقتال، متحفزة للوثوب على الطريدة متى كانت لها فرصة لذلك.

و لعلنا نلاحظ في هذا التقابل بين الصورتين (الثور/ الصياد وكلابه) ما يعمق الفعل الدرامي، ويضفي الدموية على المشهد. وهو ما يشير في معناه البعيد إلى ذلك النزال الشرس الذي يفرض على الإنسان من قبل الدهر، ويختم عليه أن يخوض المعركة وأن يكون في مستوى الصراع وإلاَّ كان لقمة صائغة، وخسر وجوده في أول جولة.

5. خاتمة:

وعلى شاكلة ما تقدم، تستوفي قصة الثور عناصرها بكل ما تحتويه من مشاهد وأحداث، فهي تركز بعض أقسامها على الجانب الوصفي للشخصيات في ذاتها حيث يتوزع هذا الوصف على محورين؛ يتعلق الأول بالوصف الحسي، ويتصل المحور الثاني بالحالة النفسية لدى كل من هذه الشخصيات بكل ما ينتاب هذه الحالة من قلق واضطراب، وفزع، وتعب، ويأس وأمل، وتوثر، وسعادة، وما سوى ذلك من المشاعر التي يتطلبها كل موقف من المواقف.

كما تهتم القصة من زاوية ثانية بعنصر الأحداث وتنميتها، من خلال تحريك الشخصيات، ونقل المواقف التي تصنعها هذه الشخصيات من خلال علاقتها ببعض، والتصعيد من هذه الأحداث إلى حدِّ الدموية والموت إلى أن تنتهي إلى حل معين، بانتصار أحد الطرفين.

وحين يعيد القارئ النظر في هذه القصة لا شك أنه لن يسلم من جملة من التساؤلات التي ترشح في ذهنه وتستقر في نفسه عقب فعل القراءة، فيظل بعدها يبحث في شغف عن إجابة شافية؛ فهل كانت هذه القصة لمجرد المتعة الفنية، وأنَّ الشاعر في ذلك كان يسعى إلى إشباع رغبة في الاستمتاع من حياة الصحراء وعالمها العجيب؟ وهل كان يُرْوي نفسه الظامئة المتطلعة دوما إلى اكتشاف المزيد داخل هذا العالم الفسيح العامر بالأحداث. ثمَّ أنَّه أراد –فقط– أن يطلع القارئ بمدى درايته وخبرته بحياة الصحراء بكل ما تنطوي عليه من مناظر وكائنات وأسرار؟. ولكنه إضافة إلى كل هذا، لا شك قد أحال على ذهن القارئ سؤالا أكثر غورا وعمقا، إنَّه السؤال الذي يحيل على تلك القضية الكبرى التي لطالما شغلت فكر هذا الشاعر وأقلقت حياته، إنَّها قضية الوجود، الحياة والموت، الصراع من أجل البقاء.

قائمة المصادر والمراجع:

1- الأعشى، الديوان، شرح : يوسف شكري فرحات، دار الجيل– بيروت ،ط1992،1م.
2- أوس بن حجر، الديوان، تحقيق وشرح : محمد يوسف، ، دار صادر– بيروت، ط2،(**دت**).
3- بشر بن أبي خازم : الديوان، تحقيق : عزة حسن ، دار صادر– بيروت، ط2،(دت).
4- حاكم حبيب عزر الكريطي، السرد القصصي في الشعر الجاهلي، تموزة للنشر والتوزيع، 2008م.
5- رومية وهب أحمد، الرحلة في القصيدة الجاهلية ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1402هـ-1982م.
6- الزوزني، شرح المعلقات السبع ،دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر– بيروت، 1969م.
7- عبيد بن الأبرص، الديوان، المكتبة الثقافية– بيروت، لبنان،(دت).
8- سعيد العريفي ، نسيج القصيدة الجاهلية، مؤسسة الانتشار العربي– بيروت، لبنان ،ط1، 2011م.
9- أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، تحقيق واشراف لجنة من الأدباء باشراف: عبد الستار أحمد الفراج، ج10 ، دار الثقافة– بيروت، لبنان، ط8، 1990م.
10- لبيد بن ربيعة العامري ، الديوان، دار صادر– بيروت،(دت).
11- المثقب العبدي ، الديوان، تحقيق وشرح وتعليق : حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات العربية، 1971م.
12- امرؤ القيس، الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت ، 1983م.
13- المرقشان، ديوان المرقشين: المرقش الأكبر عمرو بن سعد ، تح : كارين صادر ، دار صادر للطباعة والنشر– بيروت، لبنان ، ط1، 1998م .
14- النابغة الذبياني ، الديوان ، تحقيق وشرح : كرم البستاني ، دار صادر – بيروت ،(دت) .
15- الهذليين : ديوان الهذليين، الدار القومية للطباعة و النشر– القاهرة،(دط)، 1385 هـ- 1965م.